ابتسام بن حفصية *

الصحافة اليهودية في تونس في النصف الأول من القرن العشرين: بين خطر التفرقة وتصدي النخب المسلمة "الشيخ محمد صالح النيفر نموذجًا"

(الصفحات ١٤٧- ١٦٠)

يحيلنا العنوان إلى ثلاث محاور أساسية:

المحور الأول: الصحافة اليهودية في تونس وهو مبحث لا يعلمه الكثيرون بل قد لا يعلمه إلا بعض الباحثين في مجال الحضارة فهي صحافة بقدر ما كانت فاعلة في عصرها بقدر ما تلاشى ذكرها وطمرت في تاريخنا الحديث.

المحور الثاني: المتمثل في الخطر الصهيوني التي ظهرت حملاته على أعمدة بعض الصحف اليهودية، وفي هذا المحور لن نعرّف بالصهيونية كحركة و إنما سنوضح كيفية توظيفها لبعض الصحف اليهودية لتعميق الهوة بين اليهود التونسيين وأرض الأجداد وتحفيزهم على الهجرة الجماعية إلى إسرائيل من خلال حملات صحفية شعواء ضد النظام السياسي والقضائي، ولكن أيضًا ضد بقية أفراد الشعب من المسلمين.

المحور الثالث: الشيخ محمد صالح النيفر مشروعه الفكري في التصدي لما يهدد الأمة من خطر الانشقاق والتفرقة وهو مشروع منقسم بدوره إلى قسمين:

١- التصدي المباشر للحركة الصهيونية ومساندة القضية الفلسطينية.

---

* - باحثة تونسية.

٢- تصدي غير مباشر من خلال الدعوة إلى الوحدة الوطنية وتهيأت النشأة دينيًا وأخلاقيًا لمقاومة مثل هذا الفكر المتطرف.

١/الصحافة اليهودية في تونس في النصف الأول من القرن العشرين:

من الضروري في البداية قبل التعريف بالصحافة اليهودية أن نرفع أي التباس بين الصحافة اليهودية والصحافة الصهيونية.

فالصحافة اليهودية في تونس كانت لسان حال الأقلية اليهودية التي كانت تعبر من خلالها عن همومها وشواغلها وكانت كغيرها من الصحافات خاضعة إلى عدة تجاذبات فكرية وسياسية ولم تكن الصحافة الصهيونية إلا جزءًا منها.

نشأت الصحافة اليهودية في تونس مع بداية تدوين الكتابة اليهودية العربية وهي كتابة خاصة باليهود التوانسة (وهنا لا نعني التونسيين بل "التوانسة" وهو مصطلح يطلق على اليهود الذين يعود تواجدهم في تونس إلى ما قبل ميلاد المسيح).

وهذه الكتابة هي عبارة عن تمثيل صوتي بواسطة أصوات وحركات عبرية للهجة التونسية العامية، ثم تطورت هذه الصحافة مع ظهور الصحف اليهودية المكتوبة بالفرنسية لتدافع عن مصالح المجموعة اليهودية وتواكب الأنشطة السياسية والفكرية لمختلف الأحزاب والتيارات السياسية اليهودية الناشطة في تلك الفترة. امتد نشاط هذه الصحافة من نهاية القرن التاسع عشر إلى الستينات من القرن العشرين وقد عرف مسار تطورها ثلاث منعرجات حاسمة:

المرحلة الأولى: المرحلة التأسيسية بداية من سنة ١٨٧٨ تاريخ إصدار أول صحيفة يهودية تونسية لصاحبها إبراهم الطيب مرحلة امتدت إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى وأكثر ما يميزها على مستوى الشكل صدورها بالكتابة اليهودية العربية، أما على مستوى المضمون فكانت ذات طابع ترفيهي وتثقيفي وتعليمي ولم تكن

تحمل في المجمل أهدافًا سياسية تذكر، وبالتالي فإنها لم تتجاوزفي تلك الفترة مرحلة الهواية.

المرحلة الثانية مرحلة الحرفية : هي مرحلة ازدهارتبلورت فيها الصحافة اليهودية وتجسدت فيها الحرفية على مستوى الشكل والمضمون، ومن أهم مميزاتها تحول لغة الكتابة من اليهودية العربية إلى اللغة الفرنسية, وهذا التحول كان نتاجًا لحركة التغريب التي خضع لها اليهود و إلى التغييرات الفكرية والسيسو اقتصادية التي طرأت على المجموعة اليهودية في تونس عقب انتصاب الحماية بالإضافة إلى تنام الحركات الوطنية وحركات المقاومة التي وضعت الفرد اليهودي أمام جملة من التساؤلات والمفاهيم المتعلقة بهويته ومدى ارتباطه بالرقعة الجغرافية التي يعيش فيها، إذ لم يكن مفهوم الانتماء إلى الوطن واضحًا آنذاك، لذلك عاشت الأقلية اليهودية في تلك الفترة حالة من التمزق والتجاذب بين "التونسة والفرنسة" إن صح التعبيربين المحافظة والحداثة , بين الديني واللائكي وهو وضع لم يكن حِكرًا على اليهود فحسب بل على المسلمين أيضًا (وهي نقطة سنأتي على ذكرها لاحقًا من خلال حديثنا عن الدورالذي لعبه الشيخ محمد صالح النيفرللتصدي إلى حركة التغريب التي طرأت على المجتمع التونسي) هذه الحركة التي لم تستطع الأقلية اليهودية الصمود أمامها بما أن الخصوصية التي تتميزبها في الدين واللغة والثقافة تغذي فكرة الاغتراب والإحساس بالدونية أمام اية وضعية صدامية مع الأخر.

وتعتبرمرحلة ما بين الحربين مرحلة ثرية على مستوى الأحداث السياسية والمتغيرات العالمية والمحلية كما أنها فترة حساسة وحاسمة في تاريخ اليهود المعاصر إذا شهد العالم آنذاك احتدادًا للحركة الصهيونية قابلتها نهضة في حركات المقاومة العربية، لذلك اقتضت ظروف المرحلة نشاطًا غيرعادي في الصحافة التونسية عمومًا والصحافة اليهودية على وجه الخصوص، فكانت هذه الصحف

تمثل حقًا صدى صوت المجموعة اليهودية على اختلاف تياراتها، ومن نتائج المرحلة انقسام اليهود في تونس(وبالتالي الصحافة اليهودية) إلى ثلاث اتجاهات سياسية كبرى.

التيار المحافظ المتمسك بجذوره رغم بعض التحفظات

ـ التيار الحداثي المتطلع إلى الانعتاق من سلطة القانون التونسي والاندماج في الجنسية الفرنسية.

ـ التيار الصهيوني التنقيحي المتطلع إلى أرض الميعاد.

ويمكن أن نستند في هذا التقسيم إلى مقال صادر في صحيفة المساواة اليهودية صدر يوم ١٢ جويلية ١٩٢٩ الموافق للرابع من تموز سنة ٥٦٨٩ بالتقويم العبري في الصفحة الأولى كتبه فليكس بجاوي وهو ملخص فعاليات الاجتماع الحاخامي الكبير بتونس وقد ورد فيه ما يلي:

«إن كل مسألة يهودية تونسية مهما كانت بسيطة تصبح بسرعة قضية وذلك لسبب وحيد هو أن الرأي العام اليهودي مقسم إلى ثلاث. المتحدثون الثلاث هم ثلاث صحف: المساواة العدالة واليقظة اليهودية.

- الأقل هو لسان حال اليهود المحافظين وهم يؤيدون الاستيطان في فلسطين دون أن يكونوا مؤيدين بصفة خاصة للصهيونية.

الثاني: لسان حال الحداثيين وهم من أنصار فرنسا.

وأخيرًا: اليقظة اليهودية التي لا تمثل بشجاعة الصهيونية فحسب بل القومية اليهودية أيضا» انتهى

إن هذا المقتطف يلخص كل ما سنأتي على ذكره ويعبر عن واقع الصراع الفكري والسياسي في صفوف اليهود في تونس كما يراه اليهود أنفسهم. يبين المقال أيضًا إلى أي مدى كانت هذه التيارات فاعلة وقادرة على التأثير في

المجموعة اليهودية من خلال الترويج لأفكارها و إيديولوجياتها عبر الصحافة. وفيما عدا التيار المحافظ الذي بقي تيارًا فكريًا ولم يتسم بأي صبغة سياسية رسمية فإن باقي التيارات تحولت إلى أحزاب سياسية.

فقد تحول التيار الحداثي إلى حزب سياسي مع بداية الثلاثينات تحت اسم حزب الحركة والانعتاق اليهودي وهو حزب متأثر في أفكاره وتسميته بالثورة الفرنسية وفلسفة التنوير.

في حين تحول التيار الصهيوني من "الصهيونية الدينية" التي تعتبر موروثًا ثقافيًا قائمًا على مفهوم العودة إلى صهيون،إلى "صهيونة سياسية "ولم تصبح حزبًا سياسيًا في تونس إلا بداية من سنة ١٩١٤ لتأخذ شكلها الثالث مع اندلاع الحرب العالمية الثانية وتتحول إلى" صهيونية التهجير" وأول من شارك في هذا الحزب مجموعة كبيرة من المجنسين المحبطين بعد أن تخلّت عنهم فرنسا إثر الاجتياح الألماني.

المرحلة الثالثة للصحافة اليهودية هي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثالثة تراجعت فيها الصحافة اليهودية ولم يصدر منها إلا ثلاثة عناوين وأولها الصباح التي صدرت سنة ١٩٣٦ ثم صحيفة «لابراس» التي أصدرها هنري سماحة سنة ١٩٣٦ وأخيرا صحيفة إسرائيل.هذا التراجع له عدة أسباب أهمها:

ـ دخول الجيش النازي وتنكيله باليهود في تونس.

ـ هجرة اليهود من أصحاب الجنسية الفرنسية إلى أوروبا إثر خروج الاستعمار الفرنسي.

ـ الهجرة الجماعية المكثفة باتجاه إسرائيل التي حفزها التيار الصهيوني بتونس الذي كان يتصيد كل شعور بالاضطهاد في صفوف اليهود في تونس ليضيق عليهم الخناق فلا يترك أمامهم إلا خيار الهجرة.

وفي هذا السياق يقول مردوخاي سماجة الأب الروحي للتيار الحداثي في تونس في كتابه *توسيع رقعة التشريع والجنسية الفرنسية* لقد كان الدين هو الملاذ

الوحيد الذي يحتمي فيه أصحاب النفوس الضعيفة لذلك كانت عيونهم موجهة دائمًا إلى إسرائيل حلم كل إسرائيلي مضطهد. إن إحساس الصهيونية لا يوجد إلا عند الإسرائيليين فقط أما من ينعم بنفس حقوق غيره من المواطنين فإن هذا الإحساس مجهول تماما»انتهى.

إن الثغرات التي كانت تعاني منها القوانين المدنيّة والشرعيّة في القضاء التونسي إلى حدود النصف الأوّل من القرن العشرين مثلت نقطة إيجابيّة بالنسبة إلى التيّار الصهيوني ارتكز عليها لاستقطاب أكبر عدد من اليهود وزجهم أمام بوّابة الهجرة إلى إسرائيل. ما نريد أن نصل إليه في النهاية هو أنّ الصهيونيّة لم تكن نتيجة لأحداث تاريخيّة بقدر ما كانت فكرة تصنع الأحداث لتكتمل فهي خاضعة في نشوتها و تطوّرها لثلاث مراحل أساسيّة :

أوّلا : مرحلة الإيمان المتمثلة في«الصهيونيّة الدينيّة».

ثانيا : مرحلة التخطيط المتمثلة في «الصهيونيّة السياسيّة».

ثالثا : مرحلة التطبيق المتمثلة في «صهيونيّة التهجير».

لقد استطاعت هذه المدوّنة (الصحف اليهوديّة) أن تواكب نشوء فكرة القوميّة و تطوّرها في مراحلها الثلاث و في كل مراحل بناء الكيان الصهيونية تأسيسه من خلال إبراز وجهات نظر التيارات السياسيّة و الفكريّة اليهوديّة سواء كانت محافظة أو اندماجيّة أو صهيونيّة فإنها تتفق رغم اختلاف الدرجات على أهمّية بناء "الدّولة الصهيونيّة" على أرض فلسطينيّة.

وفي هذا السياق يتحدّث هنري معارك في كتابه *النشاط الصهيوني في تونس* عن دور الصحف الصهيونيّة في العمل الدّعائي السياسي و يقول «لقد أعطت بعدًا جديدًا للتطلّعات الماشيحانيّة المبهمة لدى الجماهير ورسّخت في أذهاننا تعريفًا أكثر علميّة و واقعيّة للقوميّة اليهوديّة التي ننتظر كلنا ساعة ترميمها. لقد مهّدت لنا هذه الجرائد الطريق و جنّبتنا مشقّة الانطلاق من الصفر» انتهى الشاهد.

ولا يفوتنا في ختام هذا العنصر أن نشير إلى دور المستعمر الفرنسي في تنام الفكر الصهيوني في تونس انطلاقًا من مبدأ "فرق تسد" فكان الاستعمار يغذّي الشعور بالاضطهاد لدى اليهود ليضمن عدم تحالفهم مع أيّة مجموعات سياسيّة وطنيّة في المقابل كان يعمّق فكرة ارتداد اليهود في نظر المسلمين و ذلك بمنح أغلبهم الجنسيّة الفرنسيّة.

٢- الخطر الصهيوني

من الثابت أن للصحافة اليهودية في تونس دورًا هامًا في انتعاشة الصهيونية. فمنذ بداية القرن العشرين بدأت تظهر صحافة صهيونية مستقلة استطاعت أن تثبت وجودها من خلال قدرتها على التأثير في الجماهير الشعبية اليهودية، كما استطاعت أن تزاحم بقية الصحف اليهودية على اختلاف اتجاهاتها، كذلك بعض الصحف الأخرى الموجودة على الساحة، وقد بلغت ذروتها في الفترة الممتدة ما بين الحربين. ويذكر "حاييم سعدون "وهو أستاذ في الجامعة الحرة في إسرائيل في بحث له بعنوان "تأثير الصهيونية في العلاقات بين اليهود والمسلمين في تونس «إن الصحافة الممثلة للتيار الصهيوني في تونس كانت تعد على الأقل ٣٦ جريدة من مجموع ١٥٠ جريدة ودورية» وهذا ما يبين سرعة تفاقم الوعي الصهيوني في المدة الوجيزة التي ظهر فيها هذا التيار في تونس.

ورغم أهمية التيار الصهيوني فإننا لا نرى ضرورة للتعريف به لأسباب عديدة أهمها أن الصهيونية مبحث تناولته دراسات عديدة و ما سنقدمه لن يكون إلا تكرارًا لما ذكر، أما في هذا العنصر سنحصر اهتمامنا في حركة من حركات التيار الصهيوني وهي حركة التنقيحية والتي تمثلها جريدة "اليقظة اليهودية" وهي من أهم الصحف الصهيونية في تلك الفترة لذلك فإننا سنذكّر بأصول هذا التيار وظهوره في تونس و كيفية توظيفه للصحافة لخدمة مصالحه.

تعتبر "الصهيونية التنقيحية" حركة يمينية متطرفة تنتمي إلى حزب "زوهار"

التنقيحي الذي أسسه الروسي فلاديمير جابوتنسكي سنة ١٩٢٥ وهي أكثر الحركات الصهيونية تعصبًا في العالم, فهي ترفض اعتماد الحلول السياسية الدبلوماسية لتحقيق الأهداف الصهيونية وتدعو في المقابل إلى اعتماد الحلول العملية لإقامة دولة إسرائيل، مثل السعي إلى تهجيرأكبرعدد ممكن من اليهود إلى فلسطين بهدف سرعة تهويدها و إسقاط حق الفلسطينيين العرب فيها، بالاضافة إلى عسكرة كل الشباب الصهيوني في المستوطنات. أما في تونس فقد كانت بداية الحركة التنقيحية في نفس السنة التي تأسس فيها الحزب.

وكان «الفراد فالنسي» مؤسس أول منظمة صهيونية بتونس أول من سارع إلى الانضمام إلى الحزب وأصبح عضوًا في مجلسه العالمي، ولعل شعبية هذا الرجل ساهمت أيضًا في سرعة انتشارالحركة ونجاحها في كل المدن التونسية ومن إفرازات المرحلة ظهورجريدة اليقظة اليهودية التي كانت تعبرعن مطالب التنقيحيين وآرائهم، وتحرك الجماهيراليهودية في تونس وباقي المستعمرات الفرنسية باتجاه الهدف المنشود: «بناء القومية الصهيونية».

كانت أول المهام الموكولة إلى جماعة التنقيحيين في تونس و إلى الصحف التي تمثلهم بالإضافة إلى توسع رقعة الوعي الصهيوني جمعُ أكبرقدرممكن من التبرعات للمساهمة في بناء الوطن اليهودي، فكانت جريدة اليقظة تتولى مهمة التعريف بالصناديق الصهيونية الخاصة بالتبرعات وحث اليهود بكل طبقاتهم على المساهمة فيها، ولعل أهم هذه الصناديق هو الصندوق القومي اليهودي، ولعله يجدر بنا أن نقربأن التيارالصهيوني لاسيما التنقيحي استطاع أن يختصرعمل قرون في بضع سنوات و تجاوزالعمل التنظيري إلى العمل التطبيقي المباشر. فكل يهودي في المخطط الصهيوني مجبرعلى المساهمة من موضعه في بناء الوطن.

لقد تحولت عملية التبرع لدى الصهاينة إلى عملية تباهي وتفاخربين المنظمات العالمية وحتى بين الجماعات المحلية، ففي مقال صدربعنوان "إلى العمل" حثت

جريدة اليقظة اليهود في كل المدن الداخلية على الاقتداء بالجالية اليهودية في سوسة التي استطاعت أن تقدم للنائب العام للصندوق القومي اليهودي سترازبورغ مبلغا قدره ٥ آلاف فرنك وهي عائدات حفل نظمته بتاريخ ٢٤ جانفي ١٩٢٦.

لقد اعتبرالتيارالتنقيحي المسألة اليهودية مسألة قومية بالأساس لذلك كانت الهوية من أهم القضايا التي طرحتها الجريدة و قد أصدرت سلسلة بعنوان "هل نحن تونسيون" صدرأول مقال منها ١٩ من ديسمبر١٩٢٤ ونحن نعتبرأن مقالاً كهذا على درجة كبيرة من الخطورة لأنه يطعن في هوية اليهود التونسيين، بل أكثرمن ذلك فهو يضيق عليهم الخناق ويجعلهم في مواجهة مع ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. يقول صاحب المقال "هل نحن تونسيون ؟ «هذا ما يقال وما تؤكده النصوص وما تكرره السلطات العمومية ولكن اليهود أنفسهم المعنيين بالأمرمازالوا يتساءلون إذا كانوا أولا من رعايا الباي. إن لليهود ألف حق في أن يعتبروا أنفسهم أجانب وأن يحوّلوا أنظارهم باتجاه فرنسا التي تستطيع على الأقل أن تمنحهم قضاء عادلا وتعطيهم الجنسية على أسس صحيحة».

لقد قابلت النخب المسلمة بقيادة الزيتونيين وعلى رأسهم الشيخ محمد صالح النيفرالحركاتِ الرامية إلى معادات الوحدة الوطنية والقومية والداعية إلى التفرقة بين أفراد الأمة الواحدة بكثيرمن الحذروالصد. فبالإضافة إلى القضايا الموكولة إليهم مثل مقاومة الاستعماروالفساد في السلطة والفقر والأمية ونشرالدين. كان على الشيخ وجماعته إبداء مواقف صارمة من قضايا لاتقل خطورة مثل تجنيس اليهود والفكرالصهيوني الذي لا يشكل خطرًا على البلاد التونسية فحسب بل على الأمة العربية.

٣/الشيخ محمد صالح النيفرومشروعه الفكري :

في هذا العنصرلا نرى ضرورة للتعريف بالشيخ اذ سبقتنا في ذلك كريمته الاستاذة أروى النيفروهي أقدرمنّا على ذلك إلاأنني أستسمحكم قبل الحديث

عن مشروعه الفكري في الوقوف عند نقطة هامة وهي نقطة منهجية شكلت عائقًا أمامنا أثناء إنجاز هذه المداخلة والمتمثلة في ندرة المراجع الخاصة بتاريخ و إنجازات الشيخ، وهو أمر مستنكر مقارنة بتاريخ الرجل ونظالاته، حتى أننا لا نجد أثرًا للحديث عن مشروعه الفكري ودوره في الحركة النضالية ضد الاستعمار في كتب التاريخ المعاصر أو كتب التاريخ في المناهج الدراسية والجامعية، وهو أمر في ـ تقديرنا ـ يدعو إلى الفزع لأن التاريخ في نظرنا حدث مكتمل وكل حدث مكتمل حقيقة. والحقائق لا تقبل التأويل والتزييف. الا أن كتابة التاريخ في بلادنا خاضعة لمنطق الإقصاء والغربلة وتسليط الأضواء على شخصيات دون أخرى وهو ما يمكن أن نسميه "بتسييس التاريخ".

إن الانظمة المتعاقبة على البلاد التونسية بصفة خاصة والبلاد العربية بصفة عامة سعت باستمرار إلى تسيس تاريخ الفكر وتقديمه للأجيال اللاحقة في الصورة التي تتماشى مع ايديولوجيتها وسياساتها لذلك كان الإقصاء مصير كل مفكر لا يجلس في حضرة السلطان، كذلك كانت علاقة الشيخ بالسلطة تلك العلاقة الجدلية السرمدية بين المثقف والسلطان، فلا عجب إذ لم نجد ذكرًا لمفكر إسلامي مثل الشيخ النيفر بين صفحات تاريخ البلاد التونسية.

إن الكتابة المؤدلجة لتاريخ تونس المعاصر خاصة ما بعد الاستقلال لم تبق إلا على من يتماشى فكرهم مع السياسة العامة للبلاد, فلا أثر لشيوخ زيتونيين في دولة علمانية أو مفكرين قوميين في دولة الوحدة الوطنية (ولكن الخوف, كل الخوف أن لا يكون لهم ذكر أيضًا في دولة نظامها إسلامي)

إن عملية طمس الحقائق التي تعرض لها التاريخ الشيخ النيفر النضالي خاصة فيما يتعلق بموقفه من التيار الصهيوني والقضية القومية دليل قاطع على مكانة الرجل وحجم الخطر الذي كان يشكله على السلطة, والسلطة هنا لا تحمل مدلولاً واحدًا بل هي متعددة، فهي سلطة استعمارية فرنسية كانت تخشى تأثيره

في الشباب ودعوتهم للوحدة القومية والوطنية كما كانت تخشى تعامله مع الألمان وتحالفه معهم.

كما تجسدت السلطة أيضًا من خلال الاحتلال النازي الذي كان يأمل أن يتحالف الشيخ فعلاً معه ويسانده في تعبئة الشباب ضد المحور وفي حرب الإبادة التي كان يشنها على اليهود والتي رفضها الشيخ.

كما تجسدت السلطة أيضًا في الحزب الدستوري التونسي الذي كان يخشى شعبية الشيخ النيفر وجمعية الشبان المسلمين التي فاقت في أحيان كثيرة شعبية الحزب، نظرًا لأن الوازع الديني كان أقدر على تعبئة الشباب من الوازع الوطني.

إذن كانت السلطة متعددة وأهدافها متباينة لكن المشروع الفكري للشيخ النيفر ثابت وهو نصرة فلسطين والتصدي للصهيونية من خلال الوحدة القومية أولا، والوحدة الوطنية ثانية. ومقاومة كل أشكال الانشقاق والتفرقة بين أفراد الأمة الواحدة بما فيهم الأقلية اليهودية.

ومن المهم جدًا أن نبين أن الشيخ النيفر رغم معاداته الشرسة للصهيونية التي أطلق عليها اسم" الطفل المدلل" فإنه كان يفصل تمامًا بين المسألة الصهيونية والمسألة اليهودية، وهذا ما يتجلى من خلال كتاباته، إذ كان كثير التعاطف مع اليهود التونسيين ويعتبر مسألة انتمائهم إلى الوطن من المسلّمات حتى أنه رفض التعامل مع الألمان على خلاف غيره من النخبة التونسية. إذ كان يدرك أن سياستهم إجرامية وعنصرية إذ يقول الشيخ: «والواقع أن الألمان ظلموا اليهود أعرف تلك الدار التي دخلنا فيها كانت فخمة فيها أثاث بلور لليهود ألقوا به في الشارع وسكنوها».

كما كان من النخبويين المسلمين القلائل الذين رفضوا إقصاء المجموعة اليهودية من جمهورية ما بعد الاستقلال. وعلى عكس غيره من الزيتونيين الذين اتهموا المجموعة اليهودية بالخيانة على اعتبار أن لها صلة بالقوى الاستعمارية أبى

الشيخ إلا أن يكونوا جزءًا من الوحدة الوطنية ويذكرفي كتابه أن بورقيبة قد سأله قبيل الاستقلال «عندما نأخذ الحكم ماذا سنفعل مع اليهود والنصارى»؟ فقلت «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

لقد كان الشيخ مدركًا تمامًا أن العمالة مع الاستعمارلم تكن حكرًا على اليهود بل أيضًا على بعض المسلمين من أصحاب النفوس الضعيفة والدليل على ذلك أن قضية التجنيس التي كان للشيخ فيها موقفًا صارمًا وجريئًا لم تكن حكرًا على اليهود فحسب بل سارع إلى اعتناقها عدد كبيرمن المسلمين.

إلا أن الشيخ كان واضحًا في موقفه من الصهيونية ومشروعها الاستيطاني في فلسطين، ويعتبرأن الخطرالصهيوني سواء كان على الصعيد الداخلي أو على الصعيد العربي لا يخرج عن إطارالحرب القديمة التي يشنها الغرب على الشرق، وأن الكيان الصهيوني ليس إلا ذلك العنصرالمريض الذي زرع في الجسد العربي ليبقيه عليلا إذ يقول: «فماذا يسمى بربكم هذا المعلن عنه الذي يقدرالإعلام العالمي أن يخفي واقعه من تشنيع وتدبيروعمل وما تقوم به اليهودية في فلسطين, ومن حرب النصارى و إخوانهم الأمريكان أليس ذلك يمثل ويجسد ويجهرويحمل رايات الصلبان». لقد رأى الشيخ في الحركة الصهيونية في أهدافها وغاياتها امتدادًا للحروب الصليبية التي عرفها العرب في السابق إذ يقول: «بني قومي و إخواني أُعلنها سافرةً، حقيقيةً مفضوحةً، فاضحةً!! فلسنا نقدرأن نقول أن الحروب الصليبية ماتت في غضون أحقاب ماضية هذا هراء, وقلب للواقع بين الورى بل هي حية ترزق قوية في عنفوانها, عظيمة أركانها».

لذلك جند الشيخ نفسه و إخوانه ممن آمنوا بمشروعه الفكري على امتداد مسيرته النضالية للتصدي للخطرالصهيوني وكان التصدي كما أشرنا على صعيدين: صعيد عملي وصعيد نظري، صعيد نظري متجسد في النقاط التالية:

ـ التعريف بالخطرالصهيوني وفضح أهدافه وغاياته والأطراف التي تدعمه من

خلال كتاباته في الساحة المحلية والعربية.

ـ تنمية الوعي السياسي لدى الشباب وتعبئته لمجابهة أي شكل من الأشكال العنصرية والاستعمارية سواء كان الاستعمارالفرنسي أوالكيان الصهيوني.

ـ التركيزعلى مفهوم الوحدة والعمل الجماعي وهو صلب المشروع الفكري للشيخ النيفر.

أما على الصعيد العملي فقد تمكن الشيخ خاصة من خلال جمعية الشبان المسلمين أن يغلب العمل على القول فكانت انجازاته تفوق مقالاته إذ اتخذ جملة الإجراءات الهامة في مجابهة الخطرالصهيوني من ذلك تجنيد الشباب المسلم الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و٢٥ سنة للتطوع للمقاومة المسلحة ضد الكيان الصهيوني.

ـ إصدارفتاوى تحرّم التجنيس للمسلمين وتجرّم تجنيس اليهود باعتبارهم جزءًا من الوحدة الوطنيّة.

ـ جمع التبرعات لفائدة المقاومة العربيّة من خلال بيع قصاصات عنوانها إلى نصرة فلسطين.

ورغم أهمية هذه الخطوات إلاأنّها كانت محاطة بقبضة أمنيّة مشدّدة تحدّ من فاعليّتها فكان الاحتلال الفرنسي يناصرالصهيونيّة ويتصدّى لمن يهاجمها.

من ناحية أخرى كان الحزب الحرّالدستوري التونسي يترصّد خطوات الشيخ ويحاصرها مدّعين في ذلك الخوف من تقدّم القضيّة الفلسطينيّة على حساب القضيّة الوطنيّة!!

الخاتمة

قام الخطاب الفكري للشيخ محمّد صالح النيفرعلى مقاومة المشروع الصهيوني وسعى إلى الكشف عن طبيعته الاستعمارية والعنصرية، وسعى من

خلال نشاط في جمعيّة الشبان المسلمين ثم من خلال ترأسه للمجلة تعبئة الجماهيروخاصّة الشباب لمواجهة نشاطات الحركة الصهيونيّة داخل و خارج البلاد التونسيّة. و قد تعددت مظاهردعم الشيخ و جماعته للقضيّة الفلسطينيّة منذ بداية الثلاثينات، و لم يتعارض تبنيه لهذه القضيّة مع القضيّة الوطنيّة و مجابهة الاستعمار الفرنسي، إذ كان يعتبرهما وجهان لعملة واحدة.

وفي الختام حاولنا من خلال تحليل هذه العناصرأن نتعرّف على حركة فكريّة اجتماعيّة و سياسيّة كانت تتغلغل و تتبلورفي صلب المجتمع التونسي . حركة مختلفة في الفكر وفي الأسلوب و في الغايات عن المسارالعام لباقي المجتمع التونسي تجسدت من خلال الصحافة اليهودية في تونس.

كما حاولنا الكشف عن شبكة العلاقات الخارجيّة المتمثلة في علاقات المجموعات اليهوديّة في تونس بالقوى الاستعماريّة ثم بالكيان الصهيوني و ببعض الأحزاب الصهيونيّة العالميّة أو بعض المنظمات اليهوديّة مثل الرابطة الإسرائيلية العالميّة أمّا شبكة العلاقات الداخليّة فهي تطرح جملة من العلاقات بين اليهود و السلطة و بين اليهود و المسلمين في بعديها البسيط و النخبوي.

كما سعينا إلى قراءة صورة الآخر، الآخرالمختلف في الفكروالدّين و العرق في المشروع الفكري و التربوي للشيخ محمّد صالح النيفرالذي فصل فيه كلّيا بين المسألة الصهيونية و بين علاقة المسلمين باليهود في تونس و ذلك من خلال ترسيخ مفهوم التسامح الديني و التركيزعلى مفهوم الوحدة الوطنيّة.